رسالة المؤرخ . .

الى المعلم . . . .

للأستاذ الفاضل الدكتور أحمد فريد رفاعي

أكثر الذين يقبلون على التاريخ : لايقبلون عليه إلا وهم راغبون في التعرف إلى جملة من مجموعة أرقام بما فيها من أرقام التاريخ ، وتعداد القتلى إن تكن هذه الحوادث وإلى الحوادث ما يجرى في ميدان الحرب ، ولقد أخذت قراءة التاريخ من هذا الجانب تشغل الناس — وخاصة منهم أولئك المثقفين — عن ملابسة التاريخ من وجهة شخصياته الممتازة ملابسة لاتقوى عليها أحداث القتال فيها إلا بمقدار مايعرفون منه أي المراحل اتسمت خطوات أولئك القادة ، وإلى أي المسالك اتجهت بهم جولاتهم مع الزمن ، ولقد يبدو غريباً بالغ الغرابة في رأي هؤلاء الذين يقرأون التاريخ على أسلوبه العتيق ، أن ينصرف المؤرخون في العصر الحديث إلى اختيار شخصيات قليلة ، ولكنها عالية إنسانية ذائعة ، ليحدثوا الجماهير عنها ، كيف كانت ، وأي أثر أثارته ، في عصرها ، وفيما أعقبه من عصور ، وأي تقدم لقيته الدولة التي ينتسب إليها ؛ أو أي تأخر أصابته في عهده ، سواء في ذلك مايتصل بالأدب والعلم والاجتماع . لقد يبدو ذلك غريباً حقاً ، ولكن الروح التي أشاعها المؤرخون المحدثون على نتاجهم من هذه الناحية ، وعلى رأسهم المؤرخ الألماني البعيد الذكر « إميل لدويج » قد أظهرت القراء على أنهم يستوعبون شيئاً جديداً حقا ، وأن هذا الشيء الجديد يحقق لهم معرفة الشخصيات القوية ، كما يحقق لهم معرفة الدول التي أنجبتها ، معرفة بعيدة عن ذلك القلق بين ضروب من المهاترات التي كان يلتزمها نفر من مؤرخي الأجيال القديمة ، ذلك أن المؤرخ الحديث يعنى أول مايعنى باستجماع هذه الحلقات المتناثرة التي تصل مابين الوقائع وتفرعه ، ثم يلمها بعضها إلى جانب بعض ، ثم يتناولها في بوتقة تفكيره ، فيصهرها صهراً ثم يفرغها بعد ذلك في قالب يلبسه من رأيه ثوباً تجتمع إليه النصفة بمقدار مايجتمع إليه المنطق

بمقدار ما يجتمع إليهما التحقيق الذي لا شائبة فيه ، ومن هنا فقد التاريخ في أسلوبه الحديث ذلك الطابع الخرافي الذي يقوم على جماعات من الروايات التي لا يدعمها الحق الصريح الفصيح.

ولعلي لا أكون متجنياً وجهة السداد حين أرى أن « المعلم » طليعة أولئك الذين يحق لهم أن يتناولوا التاريخ في سياقه الحديث تناول استقراء واستقصاء وتأمل ، حتى يلم منه بهذه الأطراف التي تدفعه إلى صميمه دفعاً يطلع فيه على صور جديدة من البحث الدقيق الواعي العميق .

إن المعلم حين يقبل على التاريخ بهذه الروح إنما يوزع فوائده بين نفسه توزيعاً يفيده في حياته الثقافية فائدة مذكورة دائمة . ذلك أنه يستطيع أن يعلو من هذه الدراسة : كيف يكون الإنصاف للحق ، وكيف يكون التحقيق الصائب وكيف يثير المنطق المعقول في النفس عاطفة الإيمان بما هو جدير بالإيمان ، وكيف يتاح له أن يأخذ العبرة من غيره سليمة من تلك النقائص التي تدعمها الروايات الطائشة أو يلبسها الانتحال الذي لا غناء فيه ؟ .

ومتى خرج المعلم من دراسته بهذا التراث ، فمن المحقق أنه سيعرف كيف يأخذ تلاميذه على متابعة الحقائق المجردة البعيدة عن الغلو والإغراق ، فيربي فيهم فضيلة الصدق إلى جانب ما يدفع إليهم من الحذر الذي لا يدعوهم إلى تصديق كل شيء ، وحتى ولو كان تصديقه حجة ناهضة على الخرق ، ومن المحقق أن المعلم متى خرج من دراسته للتاريخ بهذا التراث ، إنما يعرف كيف يعود تلاميذه — بعد أن يعود نفسه — البحث الشامل لكل جوانب التحقيق المتزن المنطقي وما فيه من دقة تحمله على استغلال النتائج القوية المعقولة ، وإنه ليخرج بهذا إلى الشعب أدمغة تدرك مرمى اتجاهها في غير عسر ، كما أنه يخرج إلى الشعب أفهاماً تدرك طوايا الحقائق دون أن تبهرها تلك الزخارف القائمة على حواشيها .

وخير للمؤرخ أن يزود المعلم برسالة من هذا الطراز ، حتى يؤديها « المعلم » بدوره إلى أولئك الأبناء الروحيين الذين وكلوا إليه ، فقد جاءت من سعي في ظل هذه الرسالة ما أعتقد أنه نفع جزيل ، وخير موفور .

أحمد فريد رفاعي

الديانة والتربية الاجتماعية

كتاب ظريف وضعه نخبة من الاخوان المدرسين بالمدارس الالزامية ، وضمنوه مقرر الدين والتربية الاجتماعية لآخر منهج وضعته الوزارة ، فلهم من التعليم والأخوان خير الجزاء كما نتمنى لكتابهم الرواج والتشجيع الجدير بهما .